السجن ودلالاته في مذكرات "سيدي عمر" للنائب محمد أبي طير

The jails and its connotations in the diaries of "Sedi Omar" for the deputy Mohammad Omar.

د.فادي صقر عصيدة، جامعة بيرزيت- فلسطين

ملخص: يعرض هذا البحث لقضية السجن في مذكرات "سيدي عمر" التي كتبها النائب محمد أبو طير، حيث عاش في سجون الاحتلال فترة زادت عن ثلث القرن، لذلك فهو تحدث عن هذه السجون بتفاصيلها كلها، وبدلالاتها المختلفة، وقد هدف البحث إلى بيان وصف حياة الكاتب داخل السجون الصهيونية، وبيان أبرز مظاهر الألم والمعاناة في هذه السجون، وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يسير وفق المنهج الاستقصائي الذي يستقصي أبرز أحداث السجن، ومصطلحاته، والمنهج الوصفي الذي يصف هذه الأحداث أو المصطلحات الخاصة بالسجن، والمنهج التحليلي الذي يقوم بتحليل أبعادها، وبيان وجهة نظر الكاتب فيها، وقد خلص البحث إلى عدد من النتائج أبرزها: السجن المكان الأبرز الذي تحدث عنه الكاتب في مذكراته، كما كان للكاتب موقف من العديد من قضايا السجن وأحداثه، إضافة إلى مشاركته في العديد من الأحداث المهمة داخل السجون، وتركت آثارها خارجها.

الكلمات المفتاحية: المذكرات، السجن، المعاناة، صفقات التبادل.

This research shows the issue jails in the diaries of "Sedi Omar" which was written by deputy Mohammad Abu Ter. He stayed in the jails of occupation for a period of more than thirty years. He talked about all the details of these jails and their significance. This study is to describe the writer's life inside these Zionist jails. It also shows all the features of pain and suffering in these jails. The nature of this study followed the inductive method that investigates the main events and terms of jails. It also uses the analytical method that analyses these events. It also discusses the events from the writer's point of view.From the findings of this research is that the prison is the main event that the writer talks about in his diaries. Another finding is that the writer has an opinion about many of the jail issues and events. In addition, the writer himself has participated and experienced many of these events inside the jails which has left a great impact later in his life.

Keywords: diaries, jails, suffering, exchange deals.

مقدمة:

تعد كتب الذكريات أو المذكرات – بصفتها الحالية - من الأجناس الأدبية التي ظهرت حديثا في أدبنا العربي، وهي ذات قيمة عظيمة عند الأمم والشعوب، ذلك أن من تصدوا لكتابتها كانوا غالبا ممن اغتنت حياتهم بالتجارب والمعارف والخبرات، لذلك تتسابق دور النشر لمثل هؤلاء العظماء لكي تحصل منهم على شرف نشر مثل هذه الكتب التي تسجل مرحلة مهمة من مراحل حياة هذه الأمم وغالبا ما تكون هذه الأحداث مغلفة بطابع السرية والكتمان.

ونحن في هذا البحث سنقف عند كاتب فلسطيني ومقاوم مقدسي تجرع ألم الغربة، وقاسى ظلمة السجن طويلا، إنه الشيخ محمد أبو طير النائب في المجلس التشريعي الفلسطيني، حيث سجل أحداث حياته في كتاب أصدره العام الماضي (2017)، تحدث فيه عن تجاربه وحياته طوال سنوات عمره التي قاربت على السبعين قضى قرابة النصف منها متنقلا في سجون الاحتلال الصهيوني، وكان شاهدا حيا على أحداث القضية الفلسطينية بكل مراحلها ومنعطفاتها، لذلك جاء كتابه الذي أسماه "ذكريات" حافلا بمعلومات قيمة، وزاخرا بأحداث جسام مست الشعب الفلسطيني في كل أماكن تواجده في فلسطين وخارجها، وكذلك في السجون التي ضمت بين جدرانها مئات الآلاف من خيرة أبناء الشعب المقاوم.

وقد تنوعت الأماكن التي شهدتها أحداث حياة كاتبنا وكانت شاهدة على مراحل حياته كلها، لذلك فهي شكلت مادة تستحق أن نقف عندها بالدراسة والتحليل، ولكثرة هذه الأماكن فقد ارتأينا أن نختار أبرزها وأهمها والتي كان لها الدور الهام في صناعة أحداث مهمة في حياة الشيخ وحياة الشعب الفلسطيني ألا وهو السجن.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يسير وفق المنهج الاستقصائي الذي هدف لاستقصاء المكان موضع الدراسة (السجن)، واختياره دون غيره من الأماكن، واستقصاء أبرز مظاهر المعاناة، وأهم الأحداث التي تحدث عنها الكاتب، والمنهج الوصفي الذي وصف الأمكنة موضع الدراسة، وكذلك المنهج التحليلي الذي وقف عند هذه الأمكنة تحليلا وتفصيلا، وبيَّن وجهة نظر الكاتب في هذه الأمكنة، وقد جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وقسمين إضافة لخاتمة؛ ففي التمهيد عرضنا تعريفا بسيطا بالكاتب، وأهم مراحل حياته، وتعريف بكتابه المسمى "سيدي عمر"، كما وضحنا باختصار تعريف المكان ودوره في العمل الأدبي ومنها هذه المذكرات، أما القسم الأول فكان حول مظاهر الألم والمعاناة في السجن، متمثلة في لحظة الاعتقال، والتحقيق والتعذيب، وفي جدران السجن وبنائه، وغيرها من مظاهر المعاناة، أما القسم الثاني فحوى أبرز الأحداث التي عاشها الكاتب في السجن وكان لها تأثيرها في حياته الشخصية، وفي حياة الشعب الفلسطيني عامة، كتأسيس الجماعة الإسلامية في السجون، والإضراب عن الطعام، وصفقات التبادل لتحرير الأسرى، وخُتم البحث بخاتمة لأبرز النتائج.

أهمية الدراسة وأهدافها:

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تسلط الضوء على قضية أدبية مهمة هي أدب السجون، الذي سجل جزءا من تاريخ الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال الصهيوني، فهي رسمت صورة واضحة لهذا المكان الذي ضم بين جدرانه مئات الألوف من الفلسطينيين طوال سنوات الاحتلال، وذلك

كما رواها من عاش التجربة، وقاسى ألم السجن وعذاباته، وقد هدفت هذه الدراسة إلى بيان وصف حياة الكاتب داخل السجون الصهيونية، وبيان أبرز مظاهر الألم والمعاناة في هذه السجون، وتوضيح موقفه من هذه السجون وإداراتها وسجانيها، إضافة إلى بيان أبرز الأحداث المهمة التي حصلت مع الكاتب داخل السجون، وشارك فيها وفي صناعتها.

أولا. التعريف بالكاتب محمد أبي طير (محمد أبو طير، 2017، ص567)**:**

1951/4/16 ولادة الشيخ أبو طير في قرية أم طوبا، إحدى القرى الواقعة بين القدس وبيت لحم.

صيف :1972 الشيخ أبو طير يسافر إلى بيروت للمرة الأولى للالتحاق بحركة فتح.

1974/9/12 قوات الاحتلال تعتقل الشيخ ، أبو طير للمرة الأولى.

أواخر :1976 الشيخ أبو طير يفارق تنظيم حركة فتح في السجن، ليلتحق بمجموعة من الأسرى ليشكلوا لاحقاً الجماعة الإسلامية في سجن الرملة.

2006/1/25الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة يختار كتلة التغيير والإصلاح لتكون الكتلة الأكبر في المجلس التشريعي وعلى رأسها الشيخ أبو طير.

2006/6/30 اعتقل الشيخ، أبو طير للمرة السادسة وجاء الاعتقال ضمن حملة استهدفت وزراء ونواب حركة المقاومة الإسلامية حماس وكتلة التغيير والإصلاح.

ثانيا. التعريف بكتاب "سيدي عمر"(أسامة الأشقر، الجزيرة نت، 2017/8/10):

يُعدُّ هذا الكتاب من أبرز الكتب المعاصرة التي نُشرت في تجربة الأسرى الفلسطينيين في السجون (الإسرائيلية)، وهو يؤرخ لما يزيد عن أربعين سنة من هذه التجربة. ويشرح الشيخ محمد أبو طير فيه تجربته مذ كان في حركة فتح مرورا بالجماعة الإسلامية، وانتهاء بحماس.

هذا السِّفر الذي بين أيدينا كتاب من القطع الكبير في أكثر من ستمئة صفحة، تشتمل على 12 فصلا وثلاثة ملاحق، إضافة إلى تزمين تاريخي للمحطات الفاصلة من سيرة الشيخ المقدسي محمد أبو طير في الكتاب، الذي حمل عنوان "سيدي عمر: ذكريات الشيخ محمد أبو طير". وفي الصفحات الداخلية يتوسع العنوان ليضاف إليه "ذكريات الشيخ محمد أبو طير في المقاومة و33 عاما من الاعتقال".

الكتاب صادر عن مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات في بيروت، ... هذا الكتاب من تحرير الباحث بلال محمد شلش، الذي بدأ تحرير الكتاب مع الشيخ أبو طير أواسط سنة 2011، قدم للسيرة الشيخ صالح العاروري عضو المكتب السياسي لحركة حماس، وأحد مؤسسي العمل العسكري في الضفة الغربية، وأحد رفاق الشيخ أبو طير في الأسر.

ثالثا. المكان وأهميته في العمل الأدبي:

يُعد المكان في العمل الأدبي عاملاً مهماً، وعنصراً رئيسًا في تشكيل بنية العمل، فلا يمكن إغفاله أو تجاوزه، لأن شخصيات العمل الأدبي تتحرك فيه، وكذلك الزمان يحتاجه ليحل فيه والأحداث لا تحدث إلا به"(جميلة النتشة، 2012، ص4)، وعلاقة الإنسان بالمكان تبدأ من لحظة ميلاده، فتتنامى وتتفاعل، وتنجذر أحياناً أخرى، وتندمج معه أحياناً، وتتخذ معادلات ذهنية ونفسية تنعكس في المعادلات الفنية"(عبد الحميد المحادين، د. ت، ص12).

ولعل صلاح صالح أوجز أهمية المكان في العمل الأدبي وأنه محور الشخصيات والسرد، والزمان فقال: "إن الشخصيات تحتاج مكاناً لحركتها، والزمان يحتاج مكاناً يحل فيه، ويسير منه وإليه، والأحداث لا تحدث في الفراغ، وسردها يستحيل إذا تم اقتطاعها وعزلها من الأمكنة، فلا شيء يجري ما لم يجد ما ينشئ جريانه عليه"(صلاح صالح، دس، ص12، غاستون باشلار، 2006، ص6).

"والمكان حقيقة معايشة ويؤثر في البشر بنفس القدر الذي يؤثرون فيه، فلا يوجد مكان فارغ أو سلبي، ويحمل المكان في طياته قيماً نتنج من التنظيم المعماري، كما تنتج من التوظيف الاجتماعي"(مهدي عبيدي، 2011، ص33) فما هو المكان الذي نقصده في العمل الأدبي سواء أكان قصة أم رواية أو سيرة ذاتية أم ذكريات ومذكرات كما هو الحال مع موضوع دراستنا؟

معنى المكان:

إذا عدنا إلى معاجم اللغة سنرى أن المكان مأخوذ من الجذر الثلاثي (ك و ن) وهو على (مَفْعَل) أي أنه اسم مكان من الناحية الصرفية وهو بمعنى موضع الشيء، أي المحل الذي يحل فيه ويتموضع، والفضاء الذي يحيط به، ويحدر موقعه بالقياس إلى آخر... والمكان الموضع والجمع أمكنة، وأماكن جمع الجمع(جمال الدين بن منظور، د.س، مادة كون).

والمكان لغة " الموضع الثابت المحسوس القابل للإدراك الحاوي للشيء المستقر، وهو تنوع شكلاً، وحجماً ومساحةً، إن الأمكنة شكل من أشكال الواقع"(أيوب الكفوي، 1981، 223/2).

وقد اختلف العلماء والمفكرون والباحثون قديماً وحديثاً في نظرتهم للمكان وتعريفاتهم له سواء من الناحية الفلسفية أو الاجتماعية أو الفنية(مهدي عبيدي، 2011، ص27، خالد خضرة، 2012، ص118)، ونحن هنا سنضع تعريفاً مختصراً للمكان من الناحية الفنية كونه جزءاً أصيلاً من العمل الفني الأدبي، وقد اهتم به الكُتاب والنقاد كثيراً، فالمكان هو ذلك "العالم الشامل والواسع الذي يضم عناصر العمل السردي والعلاقات الرابطة بينها والذي لا يكون الحيز فيه إلا عنصراً مؤثثاً له من بين مجموعة أخرى من العناصر كالشخوص، والزمن والأحداث"(خالد خضرة، 2012، ص118)، ويمكن تقسيم الأماكن التي تجري فيها أحداث العمل الأدبي إلى ذلك المكان المحبب الأليف هو ذلك المكان الذي تشعر به الشخصية بالراحة والأمان وهو مصدر الحب والاطمئنان، بغض النظر عن مكان تواجده، ولعل البيت هو أول هذا الأماكن المحببة والأليفة للإنسان، وهذا ما ذكره (باشلار) حيث يقول: "حين نحلم بالبيت الذي ولدنا فيه، وبينما نحن في أعماق الاسترخاء القصوى تنخرط في ذلك الدفء الأصلي... هذا هو المناخ الذي يعيش الإنسان المحمي في داخله" (ابراهيم جنداري جمعة، 1990، ص200).

وكذلك "البيت الذي ولدنا فيه، بيت مأهول وقيم الألفة موزعة فيه، وليس من السهل إقامة التوازن بينهما، فالبيت الذي ولدنا فيه محفور بشكل عادي وفي داخلنا، إنه يصبح من العادات العفوية"(غاستون باشلار، 2006، ص45).

أما المكان المعادي فهو ذلك المكان الذي يكون سببا لألم الشخصيات، المادي أو المعنوي وتنظر له الشخصيات نظرة سوداوية، وهذا ما لاحظناه في السجن الذي كان من أكثر الأماكن عداوة للكاتب لما فيه من الألم والحسرة.

السجن في ذكريات "سيدي عمر"

قضى النائب أبو طير ما يزيد عن نصف عمره في سجون الاحتلال، متنقلاً من سجن لآخر، فكان من الطبيعي أن يسهب الكاتب في ذكرياته ومذكراته بالحديث عن السجن وأبرز الأحداث التي حدثت مع الشيخ في سجنه، وسنقوم بالحديث عن السجن عند أبي طير في ذكرياته من عدة زوايا كونه شكل مكاناً مهماً في حياته، ومسرحاً لأحداث جسام حصلت معه، وغيرت من حياته وسلوكياته، وستكون دراستنا للسجن عنده لإظهار المعاناة والروتين اليومي للأسرى، ووصف للسجون التي عاشها والألم الذي عانه فيها، وموقفه من السجان وإدارة السجون، وسنوضح أبرز الأحداث التي شارك في صنعها الكاتب في هذا المكان، كما سنقف عند السجن في حياة أبي طير كونه ملتقى للأحباب وفرصة لاجتماع الأصحاب.

القسم الأول. السجن ومظاهر المعاناة:

كان السجن- ولا زال- مصدر الألم والمعاناة لأي إنسان يدخله، أو حتى يراه، وقد عاش فيه الكاتب سنوات قاربت على الخمسة والثلاثين، بدءاً من مطلع السبعينيات حتى كتابة هذه السطور، وذلك على فترات مختلفة، لذلك فقد وصف الكاتب هذا المكان وما فيه من ألم ومعاناة، بدءا من لحظة الاعتقال، مرورا بالجدران والغرف، ولم يغفل الطعام والبوسطة والمحاكم وإدارة السجون وسجانيها، وغيرها الكثير، وفي السطور القادمة سنقف عند هذه المظاهر، ونرى موقف الكاتب منها.

لحظة الاعتقال:

يُعد الاعتقال ومحاصرة البيت أو مكان تواجد الشخص المراد اعتقاله أولى عمليات الاعتقال، وربما أصعبها وأكثرها تأثيرا في النفس، وقد عرض الشيخ أبو طير للحظة الأولى لاعتقاله الأول، حيث كان هذا عام 1974م، حيث تم اعتقال الشيخ من بيته، وبعد محاصرة شديدة من عدة أجهزة للاحتلال، فوصف عملية الاعتقال وما فيها من ترهيب وتعذيب، وما تشكله من صدمة للمعتقل خاصة إن كانت تجربته الأولى في الاعتقال كما حصل مع الكاتب في هذا الاعتقال الذي يصفه بقوله: "وفي 12-9-1974م ليلاً، دهمت قوة عسكرية إسرائيلية، وبقيادة جهاز الأمن العام (الشاباك) Israel Security Aency—Isa (Shabak) وشرطة الاحتلال بيتنا، بعد حصار فرضوه على محيط البيت وعلى القرية. ودخلوا البيت بالقوة وفتشوه، وبأمر اعتقال وضعوا القيد في يدي، وبعد أن أنهوا مهمتهم في التفتيش ساقني جنود عن اليمين وعن الشمال إلى ناقلة من ناقلاتهم، ومضوا بي إلى المسكوبية، ذات الشهرة والصيت البشع في التحقيق(محمد أبو طير، 2017، ص69).

من النص السابق يمكن لنا رؤية الحصار والترهيب الذي فرضه الاحتلال على البيت، ثم وصفه لطريقة الاعتقال وربط المعتقل بالقيود إضافة إلى تفتيش البيت ولكل ما له علاقة بالمعتقل، وذلك لفرض الترهيب وزيادة الخوف في نفس المعتقل وأهله.

والأمر عند الشيخ أبي طير لم يختلف كثيرا في هذا الاعتقال عن غيره فالطريقة واحدة، من حيث حصار البيت، وتقييد الأيدي، وبعدها الاصطحاب إلى المعتقل حيث يقول:" بتاريخ 1989/2/1 جاءت قوة من حرس الحدود والشرطة والشاباك، وأحاطوا بالبيت، وهم مدججون

بالسلاح، وبأمر اعتقالي أخذوني إلى المسكوبية، لأنام تلك الليلة في زنازينها. ثمّ سفروني إلى تحقيق الجلمة." (محمد أبو طير، 2017، ص178، 190- 191، 284).

لقد حرص الشيخ أبو طير على نقل الحقيقة بكل صراحة ووضوح، فهو حين يتعرض للأذى في أثناء الاعتقال يصدح به بكل جرأة ودون وجل، وإذا كان ذلك الاعتقال يخلو من همجية الاحتلال المعتادة نراه يصف ذلك دون تردد أو خجل، فالحقيقة عنده أحق أن تعرف، ففي اعتقال عام 2013م تحدث عن طريقة هذا الاعتقال والطريقة المحترمة التي عومل بها من سلطات الاحتلال التي حضرت إلى البيت لاعتقاله، فقال: "وفي ليلة 3/ 7/ 2013، وإذا بجيش الاحتلال يطرق علينا الباب، فقمت فزعاً، وفتحت لهم الباب بعدما أخذ أهلي وقتهم، كان ذلك قريباً من الساعة الواحدة والنصف ليلاً، حسب التوقيت المحلي لمدينة القدس، وقد أعياني ليلتها التعب، وأنا أتابع مجريات الأحداث في مصر المبتلاة بحكم العسكر الذي أفسد الحياة وأفقر البلد.

طرق علينا الاحتلال الباب ليلة الانقلاب، ففتحت لهم الباب، وقالوا: نريدك أن تذهب معنا أيها الشيخ، فاقتادوني دون أي يعبثوا بالبيت، بعد ليلةٍ سهرها أرحم مِنْ نومِها، لأن قليل النوم يتعب ولا يريح. فاصطحبت ما يلزم مِنَ الثياب والدواء، ودون أن يضعوا القيد في يدي، ولا العصبةُ على عينيّ، والاحترام هو سيد الموقف مِنَ البيت، وحتى معسكر بيت إيل شمالي مدينة البيرة، ولا يكون هذا إلا بتعليمات"(محمد أبو طير، 2017، ص411).

لقد رسم الشيخ أبو طير صورة منفرة مرعبة للحظة الاعتقال، فهذا المحتل ينشر الرعب في نفوس السكان كبارا وصغارا، حيث يكون وقت الاعتقال ليلا، مما يسبب الخوف والفزع، وكذلك تنوع القوات التي تشارك في الاقتحام وضخامة عددها، كما أنه بين معاناة الأسرى وتعرضهم للضرب والإهانة من قبل الجنود المدججين بكل أنواع الأسلحة.

السجن وأبنيته:

أما السجون وأبنيتها وما تسببه من ألم ومعاناة فقد أسهب في وصفها والألم الذي تتركه في نفوس المعتقلين، فقال عن المسكوبية وزنازينها: "والعيش في المسكوبية ممرض، لأن الرطوبة أكلت من جدرانها، وأبنية قديمة جداً قبل العثمانيين، وهي مستأجرة من الكنيسة الأرثوذكسية"(محمد أبو طير، 2017، ص385).

من الوصف السابق نرى الكاتب جمع بين الوصف الحسي ووصف البناء والجدران، ووصف الأثر الذي تتركه هذه السجون في نفوس الأسرى وتأثيرها على حياتهم وصحتهم، وهذا الوصف أعادة في أكثر موضع فهذه الزنزانة وشتاؤها القاسي نلمحه في العبارات الآتية للشيخ، حيث يقول: "أما ،شتاء الزنازين فزمهرير، والبرد قارس، فموقع المحاكم قطعة من صقيع رام الله، وعن البرد في رام الله حدّث ولا حرج، وزبانية(البوسطة) لا يسمحون لك أن تتزود بالملابس الداخلية الشتوية من شدة هوسهم الأمني، لا يسمحون بأكثر من بنطلون ترتديه، ولا يسمحون لك بملابس داخلية طويلة تقيك من برد الشتاء.

والزنازين في الشتاء ثلاجة، وأي ثَلاجة؟ ومن هنا يأتيك المرض، فهذا البرد مع صقيعه ينهشان جسدك، بل لا تستطيع أن تتكئ على حائط الزنزانة لشدة بردها وما يرشح منها من ماء وبرد، ولا تستطيع الجلوس على الأرض، أو على المقاعد المصنوعة من الباطون من شدة

صقيعها. وكيف بك أن تتحرك؟ لتخرج من برودة المكان، لعلك تبعث بالدفء إلى شرايين قلبك؟ لأن فرائصك ترتعد من البرد، وحشاشة قلبك ترقص وتتلوى من البرد، وأضراسك في فمك يصك بعضها بعضاً من شدة البرد". (محمد أبو طير، 2017، ص3500).

وفي موضع آخر نرى السجن عند الكاتب هو القبر الذي يريده المحتل لهذا الشعب، حيث يقول: "ولكن الاحتلال لا يريدنا إلا في السجون أو نمت تحت التراب وكلها قبور(محمد أبو طير، 2017، ص410).

فعبارة "وكلها قبور" توحي بمدى الألم والمعاناة التي تسببها هذه السجون؛ إنها كالموت الذي يُفرق بين الأهل والأحبة.

والصورة المرعبة الآتية توحي لنا بعظم المأساة التي كان يعيشها المعتقلون في السجون الصهيونية، حيث يقول واصفا أحد الأقسام التي كان فيها المعتقلون: "وفي قسم تحت الأرض كانت مصلحة السجون تستخدمه ممراً للبوسطات وللتنقلات، وللمحاكم، ويسمى "معباراً" بلغتهم، وهذا القسم بلغ من السوء مبلغاً لا يطاق، فهو مزرعة للفئران والجرذان، والرطوبة فيه قاتلة، وحشرنا فيه حشراً كل اثنين في حجرة كالزنازين، بل ربما كانت الزنازين أرحم، والبعوض والحشرات والإنارة الضعيفة التي تضعف الرؤية، وتؤدي إلى العمى مع الزمن، أما الجدران والأبواب، فلها دهان خاص ومتعب للنظر، يتفننون في الإجرام وقد كنت نزيلاً فيه، يوم أن اتخذ مدير مصلحة السجون قراره بشأن العزل، ومن ورائه سياسة عليا للشاباك بصماته واضحة فيها"(محمد أبو طير، 2017، ص186-187).

وفي موضع آخر يختار الكاتب عنواناً يشي بمدى الظلم الذي يعانيه الأسرى في هذا المكان وهو السجن، وهو عنوان (السجن ظل ثقيل) جاء تحته "هو السجن ظله ثقيل، حتى ممن تعايشهم: وهذا من نكد الدنيا، ظل ثقيل على ظل ثقيل والاحتلال هو السبب من وراء هذه الحالة، فالاحتلال والاعتقال كوابيس"(محمد أبو طير، 2017، ص446).

حرص الكاتب من خلال وصفه للسجون وأبنيتها على أن يجمع بين أمرين اثنين، أولهما مادي حسي، وذلك بوصفه لتلك المباني وغرفها وساحاتها، حيث كانت تبنى بطريقة تزيد الألم والمعاناة، فالرطوبة قاتلة، وضيق المكان ألم، والإنارة قد تسبب العمى، والبرد مصدر لكل الأمراض والأوجاع، وكذلك بيان القذارة في تلك الأبنية وامتلائها بالحشرات والقوارض، وحرص الاحتلال على عدم الاهتمام بنظافتها لتكون معاناة فوق معاناة، وألما يزيد جرح الأسير اتساعا، أما الأمر الآخر فكان حسيا معنويا؛ حيث رأينا الألم النفسي الذي يحدثه السجن في نفوس الأسرى، وما استعمال الكاتب لألفاظ مثل "قبر، وثلاجة، وظل ثقيل" إلا دليل واضح على مدى الألم الذي يزرعه السجن في نفوس ساكنيه المرغمين.

التحقيق والتعذيب:

بعد انتهاء المرحلة الأولى من حياة الأسير وهي مرحلة الاعتقال يُقاد هذا المعتقل الجديد إلى معتقلات الاحتلال المنتشرة فوق ربوع الوطن، وعندما يصل إلى أحدها أولى الإجراءات تبدأ معه هي إجراءات التحقيق، وهذا التحقيق يختلف من شخص لآخر ومن قضية لأخرى، لكنه في أحسن أحواله هو موت ودفن في الحياة، وبعض أسماء مراكز التحقيق تثير في نفوس الفلسطينيين

الكثير من الرعب والخوف، وذلك لارتباطها بالتعذيب والموت الذي يبدع في صناعته محققون بارعون في تحطيم الإنسان نفسيا وجسديا.

والشيخ أبو طير تحدث عن ذلك كثيرا في أثناء اعتقاله، فعن اعتقاله الأول يقول: "ساقني جنود عن اليمين وعن الشمال إلى ناقلة من ناقلاتهم، ومضوا بي إلى المسكوبية، ذات الشهرة والصيت البشع في التحقيق، وما إن وصلنا حتى باشروا التحقيق بأسئلة من هنا وهناك، ويصاحب ذلك ضربٌ لحصار النفس وكسر كبريائها (محمد أبو طير، 2017، ص69)، فالمسكوبية ذائعة الصيت، واسعة الشهرة في التعذيب والإهانة وبخاصة التعذيب النفسي الذي يكون كل هدفه قتل المعتقل نفسيا قبل الجسدي.

وكان سجن الجلمة وتحقيقه من السجون التي زارها الشيخ، وقد وصف لنا التحقيق في زنازين الجلمة بعبارات تشي عما في نفسه من كره وحقد لهذه السجون فقال:" ثمّ سفروني إلى تحقيق الجلمة، وهناك كان المسلخ، وسميتها سلخانة، وهي كذلك، وتحقيق جامد، وضرب وخلع، ودكّ بحائط مدبب كالم سامير— نقول له "مشبرس" بظهري حتى تمزّقت ملابسي، وسال الدم من ظهري، وبقيت على هذه الحال في التحقيق شهراً على التمام حتى يئسوا مني"(محمد أبو طير، 2017، ص178).

إن استعمال الكاتب لبعض الكلمات في حديثه عن التعذيب تشي بمدى الظلم الذي يلحق بالأسرى في سجون الاحتلال، فهو يترك للقارئ رسم الصورة التي يريدها، فبمجرد قراءة كلمات مثل: "ذات الشهرة والصيت البشع في التحقيق، وسلخانة، وضرب، ودك بحائط" وغيرها، فإن صورة الظلم والبشاعة، والجراح الجسدية والنفسية ستظهر بوضوح في ذهنه، ولن يجد صعوبة في فهم حياة الذل والمهانة التي يعيشها الأسرى، وهذا ما أراده الكاتب وهو نقل الحقيقية المرة إلى القُراء في كل مكان.

الطعام:

تحرص إدارة السجون الصهيونية على أن يعيش الأسرى حياة هي أقرب للموت منها للحياة، لكنها لا تسمح لهم بالموت، فلذلك فهي تحرص على إذلالهم بكل الوسائل والطرق، ومنها الطعام الذي يُقدم للأسرى، وقد حرص الاحتلال على أن يكون هذا الطعام إحدى وسائل التعذيب ضد الأسرى، فكان هذا الطعام تفوح منه رائحة الحقد والذل التي يتفنن المحتل بممارستها وجعل الفلسطيني يعيش في دوامتها طوال الوقت، فالشيخ أبو طير يصف الطعام الذي يُقدم للأسرى بقوله:" الطعام في السجن سيء جدا، ولا يُقيت رجالاً كما يقولون، وهذه سياسة إدارة السجن ومصلحة السجون "النتسيق"، وما هي إلا تصبير، وكم من الليالي وأبي وسوانا طوينا جائعين!"(محمد أبو طير، 2017، ص73).

ومن القضايا التي أثارها الكاتب حول قضية الطعام هي صناعة الطعام الذي يُقدم للأسرى، حيث إن إدارة السجون لا توظف طباخين لصناعة الطعام، بل تُوكِل هذه المهمة للسجناء الجنائيين، حيث تجعلهم مسؤولين عن المطبخ وصناعة الطعام، وهذا من زيادة الإذلال والإهانة، فقال: "وكنت ذكرت من قبل أن الطعام في السجن سيء، لكن مَنْ يعمل في مطبخ السجانين، عرب جاؤوا على قضايا جنائية، وتعرفت إليهم. وكان من بينهم من يعمل في مطبخ السجانين،

ذهبت بعمامتي إلى عمال المطبخ، ... فقلت للعمال: نحن جئنا إلى السجن على خلفية وطنية، والمطلوب منكم أن تحسنوا الطعام وتزيدوا في الكمية، قالوا: ليس بأيدينا، قلت بإمكانكم أن تتعاونوا في ذلك... وإلا والله يا فلان أبعث إلى أهل غزة، وأطلب منهم أن يعلقوك على عمود كهرباء في شارع عمر المختار". (محمد أبو طير، 2017، ص75).

من النص السابق وبالأخص من عبارة (ليس بأيدينا) نرى كم تحرص إدارة السجون على منع الطعام الجيد، بل بالعكس توصي الطباخين بأن يكون الطعام سيئا، ولا يفي كما ونوعا، بل هي كل همها زيادة معاناة الأسرى وزيادة قهرهم وإذلالهم، وهذه الصورة الإنسانية تطلعنا على استغلال الاحتلال لأبسط حاجات الإنسان من أجل المساومة والإذلال، فالطعام في السجون وسيلة من وسائل الاحتلال لابتزاز والمساومة.

المحاكمات:

يُصر الاحتلال على تلميع وجهه القبيح دوما، فرغم قساوة الاعتقال ومرارة التعذيب والألم الذي يعيشه المعتقل يأتي الاحتلال بشيء صوري لتجميل الصورة، وهو ما يُعرف بالمحاكم، التي يُعرض عليها المعتقلون الفلسطينيون، التي قد تصل مدة بعضها إلى سنوات، هذه المحاكم هي محاكم عسكرية تخضع للقانون العسكري الصهيوني الذي يحكم الضفة الغربية وقطاع غزة، وهذه المحاكم هي محاكم صورية ظالمة، تتكون من قضاة عسكريين، وكل شيء فيها صهيوني احتلالي لذلك فهي أبعد ما تكون عن العدل، والعدالة هي الغائب الوحيد عن هذه المحاكم، "بعد الاعتقال والتعذيب يأتي دور المحكمة العسكرية، تلك المحكمة المنحازة دائماً، فهي محكمة إسرائيلية، والقضاة إسرائيليون، فكيف تكون عادلة؟، وإذا كان القاضي والجلاد على نفس المبدأ، كيف يكون الحكم؟. ولكن إسرائيل لكي تثبت للعالم وليس للفلسطينيين أنها دولة ديمقراطية وتطبق القانون، ولا تسجن شخصاً دون محاكمة، تقدم المعتقل إلى المحاكمة لكي يواجه مصيره المقرر سلفاً أمام القاضي.. وتكون الأحكام العسكرية الإسرائيلية التي توقعها بحق الشباب الفلسطيني قاسية وجائرة، فهي تحكم بالسجن، ولكن النية مبيته لا خروج إلا في حالة واحدة هي الموت أو انتظار الموت، وهذا الواقع العنصري المأساوي الذي تحاول من خلاله سلطات الاحتلال تعطيل الفلسطيني عن الفعل، تناولته الرواية بشكل مفصل ومؤثر"(ناهض زقوت، 2017، 26 / 4 / 2017م، موقع المجموعة 194).

وأبو طير عرض لهذه المحاكم التي عُرض عليها كثيرا، حيث حرص على ذكر معاناته ومعاناة الأسرى للوصول إلى المحكمة، وهي النقل إلى المحكمة بواسطة سيارات نقل الأسرى، المعروفة باسم (البوسطة)، وما يعانيه فيها الأسرى من تعذيب وألم، فقال عن محاكمته الأولى: "كانوا ينقلوننا إلى المحكمة بوسائل نقل تابعة لمصلحة السجون تسمى "بوسطة"، ولمرتين قبل الحكم علينا، حيث قدمت النيابة لائحة اتهام للسيد الوالد ولي شخصياً"(محمد أبو طير، 2017، ص75).

أما الحكم الذي صدر عليه فقد وصفه بأنه جائر وقاس وكان هذا حكمه الأول، فقال:" وصدر الحكم ضدي ستة عشر عاما نافذة وفعلية، و37 عاماً مع وقف تنفيذ، وكان الحكم قاسياً ومفاجئاً؛ لأن لائحة الاتهام لا توجب بنودها حسب قانونهم هذا الحكم الجائر، فحمدت الله واحتسبت.

وقبل النطق بالحكم، طلب القاضي أن أقدم بين يدي المحكمة استرحاماً، فقلت: الرحمة لا تطلب إلا من الله، واستأنفت ضدّ الحكم فيما بعد، وخفّض من الحكم الأول ثلاث سنوات، فأصبح الحكم ثلاث عشرة سنة"(محمد أبو طير، 2017، ص76).

ومن مفارقات القدر ومهازل المحاكم الصهيونية ما يُعرف عندهم بالاعتقال الإداري الذي كان نصيب الشيخ منه كبيرا، وهذا الاعتقال الإداري قمة الظلم والإجحاف بحق الفلسطينيين لكنه يُغلَّفُ أيضا بقرار قضائي حيث يقول:" صدر قرار القاضي بحكم إداري احترازي ستة أشهر"(محمد أبو طير، 2017، ص191).

كان الكاتب حريصا على بيان الوجه البشع والحقيقي للاحتلال، الذي يحاول دوما تجميله وتغليفه بالطابع القانوني، فالمحكمة هي الوجه المزيف للاحتلال الذي يمارس أبشع الجرائم بحق الأسرى، لذلك رأينا الكاتب يعري هذه المحاكم، سواء في قسوة أحكامها، أو في تلقيها الأوامر من الضابط العسكري، أو في الاعتقال الإداري الذي يعد أقسى مظاهر الظلم، فلفظة (احترازي) تشي بعظم الظلم الذي يعيشه الفلسطيني، فأي ظلم أعظم من الاعتقال وتقييد الحرية دون سبب، وذلك كله بسبب احترازي وليس لتهمة معينة، بل هي مخاوف أمنية فقط.

إدارة السجون:

عايش الشيخ أبو طير السجانين أكثر مما عايش أهله وأقرباءه، وذلك لطول المدة التي قضاها في معتقلات الاحتلال، وقد تكونت عنده صورة واضحة حول السجان ومصلحة السجون الصهيونية، وبعد الاطلاع على ما كتبه في مذكراته نرى أن السجان عنده قسمان، وذلك حسب طبيعة عمله وتصرفه مع الشيخ في فترة الاعتقال، والنظرة الأولى نحو السجان كانت نظرة عامة لكل مصلحة السجون وسجانيها، حيث مارست القمع والتنكيل بحق الأسرى كافة، فهذه الإدارة وسجانوها يمنعون خطب الجمعة في الساحات، ويرفضون إطلاق المعتقلين لحاهم، بل والاعتداء عليهم والتنكيل بهم، فقال في منع خطب الجمعة:" في سجن عسقلان منعت إدارة السجن خطبة الجمعة في الساحة كل غرفة لها خطبتها من غرف الجماعة"(محمد أبو طير، 2017، ص98).

أما اللحية فلها بين المعتقلين والإدارة قصة، إذ كانت تمنعها بالقوة العسكرية، وقد خاض المعتقلون لذلك حربا شرسة، وإضرابا عن الطعام لأجل ذلك، فقال:" كانت إدارة السجن بادئ الأمر تمنعنا من تربية لحانا والأخوة في عسقلان قبل وصولنا إليهم أضربوا عن الطعام سبعة عشر يوما من أجل تربية لحاهم، وكانت إدارة السجن تستعمل الزرنيخ (مادة إزالة الشعر) بالقوة لكل من أطلق لحيته"(محمد أبو طير، 2017، ص100).

والأمر نفسه بالنسبة للأذان الذي كان ممنوعا من الإدارة (محمد أبو طير، 2017، ص100) فموقف أبي طير من إدارة السجون موقف واضح هو موقف العداء والحرب، فهذه الإدارة بسياستها تعمل على قمع المعتقلين وإهانتهم وتحارب الدين وكل مظهر فلسطيني إسلامي.

أما السجان فقد كان بعضهم قاسيا وصعبا، بل جزء منهم يشكل عصابة كما وصفه الشيخ سجاني سجون الشمال وهم من الدروز، حيث قال:" فسجون الشمال يكون أكثر السجانين من الدروز سجون قاسية جدا في المعاملة، وهم - أي الدروز- في كل سجن يشكلون عصابة خارجة عن السياسة العامة للسجون وينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما، فجميعهم يشاركون الضرب،

ولهم ألسنة حداد في الشتيمة والسباب، وبألفاظ نابية، ولديهم حقد عجيب لا أدري ما أسبابه وما هي دوافعه"(محمد أبو طير، 2017، ص188-189).

وهذا المشهد للسجان الذي يمارس الحقد السب والشتم نراه لسجان آخر اسمه عصام كان يعمل سجانا في زنازين الخليل، حيث يرسم الشيخ صورة مقززة لمثل هذا السجان، فقال:" وفي زنازين التحقيق في الخليل كان سجان درزي اسمه عصام يعلو صوته بالشتيمة والسباب على من في الزنازين من المعتقلين"(محمد أبو طير، 2017، ص200).

مقابل هذه الصورة البشعة للسجان وإدارة السجون يرى الكاتب أن من السجانين من أجبرتهم الظروف على العمل في إدارة السجون، وبخاصة السجانين العرب وحتى بعض اليهود، بل كان بعضهم فيه من الأدب والأخلاق الكثير، ولعل حديثه عن بعض ضباط الاحتلال وسجانيه في سجن (عوفر) يدل على هذا الكلام، فهو يُنصف هؤلاء الضباط ويُعطي كل واحد حقه ووصفه، فقال:" ومنهم ضابط قسمنا نور نصر الدين فلفلة في التعامل مع الأسرى في القسم، نور ضابط مؤدب ومحترم وأول ما يلقي عليّ السلام يسأل عن صحتي، وقد جاءنا بدلاً من ضابطة يهودية اسمها "أورنا"، تتعامل مع عائلاتنا في الزيارة باحترام، بعدما تركت قسمنا، ولم تُسئ الأدب معنا يوم أن كانت في القسم. ومنهم الضابط سليم عزام، الذي لا يتحدث إليك إلا على أدب جمّ وخجل" (محمد أبو طير، 2017، ص412).

من النصوص السابقة التي تحدث فيها الكاتب عن إدارة السجون وموظفيها، نراه يحرص على نقل الصورة الحقيقية لهم، فهم موظفون في دولة احتلال وكل تصرفاتهم وقوانينهم هي للتضيق على الأسرى ولزيادة معاناتهم، فهم حريصون على حرمان الأسرى من أبسط حقوقهم كإطلاق اللحى، أو حتى القيام بالعبادات والشعائر الدينية، وفي ذلك كله كان منصفا في حديثه عنهم، فمن أساء ذكر إساءته، ومن أحسن وتعامل مع الأسرى بشيء من الإنسانية لم يهضمه الكاتب حقه، ولم ينسب له أفعال غيره.

البوسطة:

ومن الأماكن المتعلقة بالسجن وجاءت في ذكريات أبي طير السجن المتحرك أو ما يعرف بلغة السجون (بالبوسطة)، وقد عرض الشيخ لهذا المكان المتحرك، وما أحدثه في نفسه وجسده من ألم ومعاناة، وقد تحدث الشيخ عن هذه (البوسطة) رفيقة الأسرى في تنقلاتهم للمحاكم أو في التنقل بين السجون، فهي موطن للحشرات ومستقر للأمراض، وبخاصة حشرة (البق) التي يعرفها الأسرى جيداً فهو يقول:" فقد غزانا البق عن طريق البوسطات أو السفريات القادمة من السجون الأخرى"(محمد أبو طير، 2017، ص450).

من الوصف السابق لهذا المكان نرى أن الشيخ قد عَدَّ هذه المكان (البوسطة) مستقراً وناقلاً للحشرات وما تسببه هذه الحشرات من أمراض ومصائب للأسرى.

وفي موضع آخر نرى الشيخ يتحدث بإسهاب ليصف هذا المكان المسمى (البوسطة) بعباراتٍ تحمل فظاعة هذا المكان، والمعاناة التي يتحملها الأسرى وهم يتحركون داخل هذا المكان فهو يقول: "هذا الدعاء فيه من الندى ما يُثلج الفؤاد ويقرُّ النفس، لعله يخفف عنا المعاناة ليوم اسمه "البوسطة"، فمن الساعة السادسة صباحاً توضع القيود في رجليك وفي معصميك، ولا تفارقك

عند الأكل والصلاة، أو الذهاب إلى دورة المياه، أو وأنت جالس في قاعة المحكمة، إلى أن تعود ليلاً قريباً من العاشرة مساءً إلى غرفتك في السجن الذي أنت فيه .وعلى هذه" البوسطة "فرقة اسمها (النحشون)، رجالها غلاظ القلوب، مشبعون بالفحش والفجور، محرومون من الرحمة، وكثيراً ما اعتدوا على الأسرى وكسروا لهم أسنانهم .وعند التفتيش ولا نحمل معنا شيئاً إلا أوراق التواليت التي يحتاجها الأسير إن كان مريضاً بالإنفلونزا أو نزلة البرد، ثمّ يصادرونها ويلقون بها أرضاً .وأنت مكبل في معصميك ورجليك يطلبون منك أن تخلع الحذاء والجوارب، ثمّ تعود إلى لبس ذلك%(محمد أبو طير، 2017، ص348)، فهذا المكان (البوسطة) يحمل الألم والمعاناة والموت البطيء للأسرى وقد زاد هذا المكان سوءاً بوجود الفرقة المسؤولة عنه المسماة (نحشون) وما تفعله مع الأسرى من تفتيش وإذلال لتزيد هذا المكان سوءاً ومعاناة.

مما سبق نرى الوصف الدقيق الذي قدمه الكاتب لوسيلة نقل الأسرى (البوسطة)، كونها إحدى وسائل الاحتلال في تعذيب الأسرى وزيادة معاناتهم، ولم يُغفل الأثر الجسدي والنفسي الذي تتركه على الأسرى، حيث تزداد سوءا بتصرفات الاحتلال من منع للطعام والشراب وحتى الذهاب لدروات المياه.

الموت:

من مظاهر الألم التي تقسو على الإنسان في هذا المكان المسمى سجناً مظهر الموت لأحد أقرباء الأسير، حيث يشعر الإنسان بالعجز والألم قد تجمع من كل الدنيا، وجاء ليستلقي على ظهره، وهذا ما حصل مع أبي طير في السجن، حيث يروي لنا قصة موت والد أحد الأسرى وكيف تم تبليغه بالأمر وما فيه من ألم وحسرة، فقال:" على كل حال، أتينا بالأخوين ماهر والأستاذ عدنان خطاب، وقدمنا بين يديهما حديثاً عن الموت، يُفهم من خلاله أن المتوفى يخصهما، وأن الموت سُنة جارية، وكأس دائرة على الجميع، وطالب لا يمل الطلب .والأخ ماهر يحوقل، والأستاذ عدنان صامت لا يعلق، وفي ظنّ ماهر أن المتوفى هي والدة الأستاذ عدنان، وهي عمته لماهر وأخته لأبيه، فقلنا: يا ماهر، رحم الله أباك، فقد وافته المنية صباح هذا اليوم، فاصبر واحتسب، فما كان منه إلا أن رفع برأسه إلى صدري وقد أجهش بالبكاء فرحم الله أبا ماهر، وفتحنا غرفتنا للعزاء، وأخذنا بخاطر الأخوين ماهر في والده، والأستاذ عدنان في خاله"(محمد أبو طير، 2017، ص419، ص370).

كان حديث الكاتب عن قضية الموت داخل السجون ذا أهمية في إبراز قضية التعاطف والتلاحم بين الأسرى في هذا المصاب الجلل، حيث تُفتح بيوت العزاء ويشارك فيها الأسرى كافة، مما يساهم في تخفيف المصاب وتُشعر الأسير أنه ليس وحيدا في مصابه.

القسم الثاني. السجن مكان لأحداث هامة:

لقد أراد الاحتلال بهذا السجون المنشرة فوق الأرض الفلسطينية من بحرها لنهرها أن يعزل أبناء هذا الشعب عن بعضهم البعض، وأن يجعل هذه السجون مقبرة لمن يدخلها، وأن تكون هذه الأماكن شاهداً على نهاية الثورة الفلسطينية، ولكن هذا لم يحصل عبر سنوات النضال الفلسطيني كلها، وبما أن الشيخ أبو طير قد عاش في السجون قرابة الثلث قرن فإنه قد نقل لنا في كتابه تجربة مهمة خاضتها الحركة الأسيرة في هذا المكان القذر والحقير معنوياً ومادياً.

تأسيس الجماعة الإسلامية:

من أهم الأحداث الهامة التي حصلت في السجون كما عايشها أبو طير قضية تأسيس الجماعة الإسلامية في السجون، وما عاناه المعتقلون الإسلاميون من التنظيمات العلمانية واليسارية حتى استطاعوا تأسيس الإطار العام للجماعة الإسلامية داخل السجون، وهذا ما أفرد له الشيخ باباً كاملاً تحت عنوان (المفاصلة: الجماعة الإسلامية في السجون)، والشيخ يرى في هذا المكان (السجن) حلبة صراع قوية كانت بين الفصائل الإسلامية، والأحزاب اليسارية والعلمانية ولعل عباراته الآتية توضح إلى أي مدى وصل الصراع بينهم حيث يقول:" الغرفة الأولى التي نزلت بها عند وصولي إلى سجن الرملة، لم تكن مريحة أبداً؛ تريد أن تباشر عبادتك، أن تقوم للوضوء صباحاً، والقوم لا يصلون وأي حركة تزعجهم، تريد أن تجهر بالصلاة صباحاً مشكلة .غربة للدين ما مثلها غربة، وكيف تكون الحال والرجل يعيّر بصلاته وصيامه كما تُعير العاهرة؟ ولقد والله عُيرنا بهذا، وصبرنا كما يقولون صبر الخشب تحت المناشير" (محمد أبو طير، 2017، ص83).

لعل العبارات السابقة واختيار الشيخ لبعض الألفاظ توحي بمدى البعد ومدى الخصومة التي شهدتها السجون في تلك المرحلة، وهذا ما حكاه بعد ذلك، حيث كان السجن المكان الذي أعلن فيه الشيخ تحوله من حركة فتح وانتقاله إلى الجماعة الإسلامية التي أسسها مع مجموعة من المعتقلين، وكانت ذخراً فيما بعد لحركة حماس التي انطلقت عام 1987م، وهذا ما سجله الشيخ في هذا المكان حيث يقول:" و أخذت قراري بمفاصلة التنظيم، وخرجت إلى من يعنيه الأمر، وبلَّغت الجميع، حتى الفصائل الأخرى، أن هذه الساعة هي آخر عهدي بحركة فتح، وقلت لهم : "هذا فراق بيني وبينكم، أنتم في وادٍ و أنا في وادٍ"، قالوا :يا شيخ أنت الشيخ، شيخ الثورة الفلسطينية "(محمد أبو طير، 2017، ص84).

كان تأسيس الجماعة الإسلامية في السجون من أخطر الأحداث التي حصلت في تاريخ القضية الفلسطينية، لذلك وجدنا الكاتب يخصص لها جزءا كبيرا في كتابه، وذلك لأهمية الحدث وتأثيره على القضية، حيث تحدث عن إرهاصات التأسيس والظروف التي أدت في النهاية إلى إنشاء هذه الجماعة والتي يفخر الكاتب كثيرا أنه من أحد أعمدتها الرئيسة ومن مؤسسيها الأوائل.

الإضراب عن الطعام:

ومن الأحداث الهامة التي لها تأثيرها على الشعب الفلسطيني في كل أماكن تواجده، وتمس شرائح المجتمع كافة تلك الإضرابات عن الطعام التي شهدتها السجون وسجلها الكاتب في مذكراته، وقد كانت هذه الإضرابات التي تحدث في هذا المكان تؤثر على كل السجون وعلى خارج السجون، بدءاً من إضراب منتصف السبعينيات وانتهاء بإضراب الأسرى الإداريين عام 2014.

كان الإضراب عن الطعام الوسيلة القوية التي يلجأ إليها الأسرى إما لتحقيق مطالب إنسانية معاشية داخل السجون، أو احتجاجا على بعض العقوبات أو القرارات التي تتخذها إدارة السجون ضد الأسرى أو ذويهم، وقد يصل الهدف من الإضراب عن الطعام إلى وقف سياسات عليا للاحتلال مثل الإضراب الذي خاضه الأسرى عام 2014 لوقف الاعتقال الإداري.

وقد تحدث أبو طير عن مثل هذه الإضرابات التي عاشها بنفسه، وربما شارك في صناعتها أو قيادتها، وقد وصف الإضراب بأنه:" معركة قاسية بين إرادتين، تستعمل كل إرادة إمكانياتها على توظيف هذه الإمكانيات في سبيل كسب المعركة؛ فإرادة الأسرى قائمة على الصبر وعلى العزيمة، وعلى هدوء الأعصاب وعلى النفس الطويل، وعلى الماء الذي هو ضروري أكثر من كل شيء الذي يُحافظ على الجسم من فقد المناعة، وعلى نجاعة الإعلام وتضامن الأهالي وجموع الشعب"(محمد أبو طير، 2017، ص207)، فالكاتب يصف الإضراب عن الطعام بأنه معركة بين الأسرى والسجان والذي ينتصر فيها هو صاحب الإرادة الأقوى.

لقد تحدث الكاتب عن الإضرابات التي خاضها الأسرى طويلا وأسهب في وصف الإجراءات التي يتخذها الأسرى قبل الإعلان عن هذه الخطوة الحاسمة القوية، والتي يعدها البعض الطلقة الأخيرة تجاه مصلحة السجون، لذلك فهذه الخطوة التصعيدية تحتاج إلى إعداد جيد، وتشاور بين مختلف السجون المنتشرة في الوطن، وهذا ما نراه عند الكاتب حيث عمد إلى توضيح الإجراءات والتمهيدات التي تسبق الدخول في الخطوة؛ فمثلا يتحدث عن إضراب عام (2012م) حيث عرض للرسائل بين الإدارة والأسرى وانسداد الأفق مما أدى إلى الدخول في الإضراب، فقال:" قبل البدء في الإضراب رفع إخواننا برسائل كثيرة إلى مصلحة السجون، تطالبها بأن تتحرك إيجابياً على صعيد العزل، وأن تحدد جدولاً زمنياً لعلاج هذه الظاهرة، لكن مصلحة السجون بقائدها لم تتفاعل مع هذه الرسائل، إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة. فشكلت لجنة قبل الإضراب بأيام لم يسعفها الوقت، وغير مؤهلة لقرارات ملزمة تلبي القليل من مطالب الأسرى، ومهمتها فقط أن ترفع انطباعات عن حالة الأسرى، ولا حلّ إلاّ على مزاج قائد المصلحة"(محمد أبو طير، 2017، ص 400).

وعن التنسيق بين السجون تمهيدا لخوض الإضراب نرى الشيخ يسهب في الحديث حوله في إضراب عام (2014م) فقال:" لذلك توجه الإخوة للاجتماع فتداولوا الأمر بينهم، وأشبعوه رأياً وشورى، وتشجعوا له، وتواصلوا مع الإخوة في "النقب" و"مجدو". وتشكلت لجان هنا في "عوفر"، وهناك في "النقب"، ليدخل الجميع إضراباً مفتوحاً عن الطعام، وشعاره الخلاص من الاعتقال الإداري، أو إلغاء سياسة الاعتقال الإداري. واتفق السجنان عوفر والنقب على انتهاج خطوات تصعيدية تبدأ بمقاطعة العيادة، ثمّ مقاطعة الدواء، ثم إضراب عن الطعام ليومين في الأسبوع حتى الوصول إلى اليوم المتفق عليه لخوض غمار معركة الأمعاء الخاوية"(محمد أبو طير، 2017، ص420).

إن حديث الكاتب عن قضية الإضراب عن الطعام كان مطولا ومسهبا، وذلك لأنه من أخطر القضايا التي تواجه الأسرى وذويهم، فهو مصيبة يشترك فيها الأسير وذويه خارج السجن، لذلك رأينا الكاتب يُفصل الحديث عن إرهاصات الإضراب والأسباب التي تدفع الأسرى لمثل هذه الخطوة الأكثر خطورة على جميع الأصعدة، ورأيناه يذكر الآراء المختلفة للفصائل داخل السجون، كون هذه الخطوة لا تحظى بإجماع بين الأسرى، بل هي من عوامل الفرقة بين الأسرى وفصائلهم، لذلك فهي تحتاج للمشاورات المطولة بين السجون كافة وهذا ما حرص الكاتب على نقله في ذكرياته.

صفقات التبادل:

ما أن يضع الاحتلال قيوده في أيدي المعتقل الفلسطيني إلا والحرية وحلمها لا يفارق خياله، فالحرية هي الهدف والمأمول لكل الأسرى، وخاصة أولئك الذين حكم عليهم الاحتلال بأحكام عالية أو مؤبدة، فهؤلاء لا أمل لهم بالحرية إلا من خلال صفقات التبادل التي تعقدها فصائل المقاومة الفلسطينية مع الاحتلال الصهيوني، وقد تمت عدّة صفقات تبادل بين المقاومة والاحتلال، وكان أبو طير شاهدا عليها كلها، بل شارك في معظمها بالتخطيط والمفاوضات والمساومات وهذه الصفقات كانت الهواء الذي يتنفسه الأسرى.

لقد تحدث أبو طير في كتابه عن عدة صفقات لتبادل الأسرى، وأكثر ما كان يلفت الانتباه في تلك الصفقات هي القضايا النفسية التي كان يعيشها الأسرى كلما لاح في الأفق خبر عن صفقة، ولعل عبارة الكاتب:" انتهت أجواء الإحباط، وأقبلت أجواء التفاؤل، برسائل متبادلة بيننا وبين الأخ حافظ الدلقموني، تبين لنا أن عند القيادة العامة جنود صهاينة، وتوجد مفاوضات حثيثة والحديث يدور عن صفقة جديدة"(محمد أبو طير، 2017، ص143) توحي بمدى تأثر الأسرى بهذه الصفقات وأخبارها.

من القضايا التي تحدث عنها حول الصفقات المفاوضات الطويلة بين المقاومة الفلسطينية والاحتلال، وعن دور الصليب الأحمر الدولي في هذه الصفقات، منها مثلا ما تحدث عنه حول صفقة عام 1985، وتحفظ الاحتلال – كعادته- على أسماء بعض الأسرى، فقال:" جلست مع مدير الصليب الأحمر من قبل، ولكن هذه المرة جاءني، وفي جعبته الأخبار الأخيرة حول الصفقة، وأن الترتيبات على قدم وساق، وأن (إسرائيل) تحفظت على 36 من الأسرى، وفي النهاية قبل الطرفان بالفيتو: 18 للقيادة العامة، و18 تحفظت عليهم (إسرائيل)، وأن في الصفقة عملية تخيير، فمن أراد أن يبقى في البلاد فله ذلك"(محمد أبو طير، 2017، ص151).

أما الصفقة الأشهر في تاريخ الحركة الأسيرة (صفقة وفاء الأحرار) التي عقدتها المقاومة الفلسطينية في غزة مع الاحتلال الصهيوني عام 2011م حيث شارك الشيخ أبو طير في عدة جولات من المفاوضات مع الاحتلال، وذلك بطلب من الشاباك الذي يلجأ إلى الأسرى وقادتهم لعلهم يكونون وسطاء لعقد الصفقة، حيث جاء عند الكاتب:" بعد أن فشل أولمرت بعد أن فشل أولمرت، رئيس وزراء دولة الاحتلال، في عقد صفقة تبادل الأسرى مقابل الجندي شاليط، توجه إلينا الشاباك، يطلب منا الوساطة في هذا الأمر، ففي 15 / 3/ 2009 جاءني ضابط استعلامات السجن بعد عدد المساء، وقال: غداً أنت راحل إلى (النقب)، وكان ذلك"(محمد أبو طير، 2017، ص378).

وبعد ذلك تحدث عن ماهية هذه الصفقة وشروطها وكيفية تنفيذها، فقال:" استيقظ الناس داخل السجون وخارجها على الأخبار التي تحمل في طياتها أن اليوم، يوم الثلاثاء 18 / 10 / 2011، هو يوم تحرير أسرانا من سجون الاحتلال، بموجب صفقة تمّ الاتفاق عليها وعلى تنفيذها برعاية مصرية وعلى مرحلتين؛ المرحلة الأولى بالإفراج عن قائمة قدمتها حماس، وعدد أفرادها 477 أسيراً، وفي المرحلة الثانية 550أسيراً، وكل ذلك مقابل الجندي الصهيوني الأسير من أرض المعركة جلعاد شاليط"(محمد أبو طير، 2017، ص396).

ولم ينس أبو طير في حديثه عن هذه الصفقة - وهي آخر صفقة عقدت مع الاحتلال للآن- أن يتذكر الصفقة الأولى التي جرت عام 1985م، وعقد مقارنة بين الصفقتين، وأهمية هذه الصفقة عن تلك كونها الأولى التي تعقد مع المقاومة داخل فلسطين المحتلة، وأن الأسرى الصهاينة محتجزون في فلسطين المحتلة وليس خارجها كما كانت تلك الصفقات (محمد أبو طير، 2017، ص396).

أما فرحة الأسرى داخل السجون وفرحة ذويهم والشعب عامة بمثل هذه الصفقات فقد صورها الكاتب في أكثر من موضع في كتابه، فمثل هذه المشاعر لا يمكن وصفها أو الشعور بها إلا ممن عاشها، فقال عن صفقة (وفاء الاحرار) وفرحة الأسرى فيها، وعنّف على من انتقدوا الصفقة كرها وحسدا من عند أنفسهم، وحقدا على المقاومة التي حققت مثل هذا الإنجاز التاريخي:" لقد خرج الأسرى في جو احتفالي مهيب وشملت الصفقة جميع التنظيمات دون استثناء. وكان لحركة فتح حظ وافر في هذه الصفقة، إلا أن بعض النفوس الرديئة لا بدّ وأن تبخس هذه الصفقة؛ وهذا شأن الموتورين العاجزين، الذين لم يعجبهم ذلك، فخرجوا علينا بألسنة حداد شداد، أشحةً على الخير. وصدق الله: {وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ} وإني لقريب من هؤلاء الناس الذين خرجوا في هذه الصفقة وأعلم جيداً أن منهم مَنْ يكيدون لنا، ويتآمرون علينا داخل السجن وخارجه، لكنها الرحمة بعائلاتهم وأهلهم وذويهم، رحمة بأبنائهم وبناتهم"(محمد أبو طير، 2017، ص397).

أما فرحة الأهالي بخروج أبنائهم فقد سجلها ونقلها بعبارات وكلمات أهلها وأصحابها، حيث قال:" احتفلت فلسطين في الضفة احتفلت فلسطين هنا في الضفة المحاصرة المكبلة، وكسرت الجماهير حاجز الخوف، ورفرفت رايات حماس الخضراء في مقر المقاطعة، وقالت أختنا المجاهدة أم عناد شقيقة الأخوين المجاهدين (نائل البرغوثي) أبو النور (وعمر البرغوثي) أبو عاصف: "بقدر ما فرحت لخروج نائل من السجن، إلا أن فرحتي كانت أكبر وأنا أرى رايات حماس ترفرف داخل المقاطعة" (محمد أبو طير، 2017، ص398).

لقد تميز حديث الكاتب عن صفقات تبادل الأسرى بالشمولية لكل مجريات أحداث تلك الصفقات، حيث شمل تأثيرها مختلف فئات المجتمع الفلسطيني، لذلك وجدنا الكاتب يغوص في أسرارها وخفاياها، وما ضمته من (كولسات) ومباحثات في معظم السجون، كما أنه رصد بكل دقة تأثيرها على الأسرى كافة، سواء من شملتهم تلك الصفقات، أو من استثنتهم، كما أنه لم يُغفِل ما أحدثته تلك الصفقات في نفوس أهالي الأسرى وذويهم، فعبر بكل دقة عن مشاعر الفرح التي كان الشعب الفلسطيني يعيشها بسببها.

العبادة ونشر الفكر:

كان الشيخ أبو طير يرى في السجن مكاناً مهماً للعبادة، ونشر الوعي الديني والوطني وذلك عن طريق الدروس الدينية والتنظيمية، وبالأخص خطبة الجمعة التي كان الشيخ يستغلها بشكل كبير لنشر أفكاره ومبادئه وبث روح الهمة في النفوس حول القضايا الدينية العامة والخاصة، حيث يقول بعد وصوله لسجن عوفر عام 2013:" وما أن استقر الحال، حتى عهدوا إليَّ بإمامة الصلاة في الحجرة وفي الساحة، فاعتمدت الدعاء والقنوت في كل صلاة جامعة أن يرفع الله البلاء عن إخواننا في مصر، أن ينصرهم، وأن يمكن لهم في الأرض، و أن ينصر الله إخواننا في سورية،

وغزة، وتونس، وليبيا، وتركيا، وفي الأرض كل الأرض، و أن ينتقم الله مِنَ الظالمين ...مِنَ المجرمين... مِنْ قادة الانقلاب في مصر"(محمد أبو طير، 2017، ص412، 128).

وفي موضوع آخر يرى الشيخ أبو طير السجن مكاناً لترويض النفس ومساعدتها على الجهاد وتحمل المصائب والمشاق، وكان الشيخ دائماً يعيش مع الكتب وبخاصة كتاب الظلال في تفسير القرآن لسيد قطب رحمه الله لما له من دورٍ "في صقل شخصيتي، وبناء نفسيتي، وهو المرجعية في تربية النخبة داخل سجون الاحتلال، بل إن سيد في كلماته، وكتاباته، لك أنه يُطل علينا مِنْ علياء الخلود، ولا أراه إلا مبتسماً، فرحم الله سيد، فكلما قرأت الظلال، أو حفظت نصاً مما كتب، استشعرت بعملقته، واستشعرت باستعلاء على هذه الجاهلية التي تموج في الأرض(محمد أبو طير، 2017، ص447-448).

لم يكن السجن عند الكاتب إلا فرصة للنفس لتغذيتها معنويا وروحيا، فالقراءة ملازمة له، والدعوة دائمة في كل أعماله، فهو كان دائم الاطلاع على أحداث الأمة، ويستغل كل منبر لنشر أفكاره ومبادئه، سواء أكانت دينية أو أخلاقية أو تربوية.

لقاء الأحباب:

لم يكن السجن - المكان الأسوء في هذا العالم - كله مساوئ وسوء في نظر أبي طير، بل كان له فوائد قد لا يجدها الإنسان خارجه، خاصة في حالتنا الفلسطينية التي لا تكاد تخلو عائلة من معاناة السجن وآلامه، والسجن عند أبي طير كان في كثير من الأحيان فرصة نادرة للقاء الأصدقاء والأحباب، ولعل الأسماء الكثيرة جداً الواردة في هذه المذكرات توحي بالكم الهائل من الأصحاب والأصدقاء الذين تعرف عليهم الكاتب في رحلته الطويلة داخل السجون الصهيونية، وكان الشيخ في كل سجن يدخله يجد أصحابه وأصدقاءه، حيث كان يحرص على الاجتماع واللقاء بهم سواء أشاركوه الغرفة الواحدة أم شاركوه القسم أم السجن، فلنأخذ لذلك مثالاً يدل على اجتماع الأصحاب والاصدقاء داخل السجن وعاطفتهم الجياشة حيث يقول:" وصلنا إلى ساحة عسقلان، واستقبلنا إخواننا بعاطفتهم جياشة، والعاطفة بيننا عارمة ومحروم منها كثير من الناس، وملأنا الفراغ الموجود في السجن"(محمد أبو طير، 2017، ص117).

وهذا ما كان يحصل مع الشيخ دوماً، فهو عندما أنهى أربعه شهور في تحقيق المسكوبية وعانى فيها ما عان تم نقله إلى عسقلان حيث يتحدث عن لقائه بالأحبة والأصدقاء، فقال ذاكراً أسماء هؤلاء الشباب ومحبته لهم ومحبتهم له: "ولما وصلتُ إلى ساحة السجن بعد التفتيش والإجراءات، استقبلني مَنْ في الساحة كأنه لم يسبق ذلك وداع .فاستقبلتني دموع الحاج أبو السكر، والمجاهد عبد الحكيم حنيني، والحاج ماجد الجعبة، وصهيب العجولي، وهارون ناصر الدين، وفراس جرار، ومن في الساحة جميعاً، وقد أوجعهم ما جرى لي"(محمد أبو طير، 2017، ص289).

وليس أدل على حبه للقاء الأصدقاء والأصحاب داخل السجن مما كتبه تحت عنوان (لحظات غالية) من أسطر أربعة وصف فيها لحظات جميلة في السجن وهي لقاؤه بأحبته – كما أسماها- وقد تشرفت أن أكون أحدهم، مع أن المدة التي قضيتها معه لم تتجاوز الأشهر الأربعة، إلا أن الشيخ عَدَّ الإفراج عن المعتقلين ممن أحبهم لحظات نادرة السعادة والفرح في ليل السجن الحالك، حيث يقول تحت عنوان (لحظات غالية):"ومِنَ اللحظات الغالية في السجن، أن جاء اليوم الذي

غادرنا فيه الأخوان الحبيبان أبو عماد سيف الإسلام دغلس، وأبو قتادة الدكتور فادي عصيدة، بعدما أنهيا محكوميتهم. وعلى شرف هذا الإفراج احتفل قسمنا بلقاءٍ جامعٍ لوداع الأخوين الكريمين، ووُزع ما تيسر مِنَ الحلوى والشراب، كان ذلك في / 13 جمادى الآخرة1435 /، الموافق 2014 /4 / 13، والحمد لله ربّ العالمين (محمد أبو طير، 2017، ص451).

رغم أن الكاتب كان من أكبر الموجودين في السجن سنا، وأكثرهم إقامة فيه إلا أنه كان مشاركا لإخوانه الأسرى في أفراحهم وأتراحهم، وقد عرض الكاتب لهذه القضية الاجتماعية كثيرا في كتابه، فهو يحرص على ذكرها دوما، لما تبعثه من همة وعزيمة في النفوس، ولتكون رسالة قوية للسجان بأن الأسرى جسم واحد يجمهم الهم والفرح ولا تفرقهم حزبية أو فصائلية.

خاتمة:

وبعد أن وصلنا إلى نهاية هذا البحث، نرى أن نسجل أبرز النتائج التي توصل لها البحث بالآتي:

-سجل السجن حضورا بارزا في حياة الكاتب، كونه عاش فيه سنوات طويلة.

-رسم الكاتب صورة قاتمة للسجن، حيث وصف جدرانه، ورفاقه، ومعناته، وحراسه، وطعامه وكل شيء له علاقة بالسجن وكان سببا في معاناة الأسرى وألمهم.

-لم يكن السجن كله عند أبي طير محنة وألما، بل قد استطاع الكاتب ورفاقه أن يحول هذا المكان إلى منحة وذلك بحسن الاستغلال والاستفادة من الأوقات.

-شهد السجن في حياة أبي طير العديد من الأحداث الهامة التي أثرت على القضية الفلسطينية برمتها، كإنشاء الجماعة الإسلامية، وعقد صفقات التبادل وغيرها.

-أبدع الكاتب في وصف السجن وشخصياته وأحداثه، وفي كل هذا امتاز الكاتب بدقة النقل، وروعة الوصف، حسن الاختيار، إضافة للصراحة وعدم التردد في كشف الحقائق مهما كانت صعبة وقاسية.

قائمة المراجع

1. إبراهيم جنداري جمعة(1990)، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل.
2. أيوب بن موسى الحسيني الكفوي(1981)، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ترجمة عدنان درويش ومحمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق.
3. جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم ابن منظور(دس)، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
4. جميلة النتشة(2012)، المكان في روايات سحر الخليفة، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم اللغة العربية، جامعة الخليل، فلسطين.
5. خالدة خضر(2012)، المكان في رواية الشماعية للروائي عبد الستار ناصر، مجلة كلية الآداب ع102، جامعة بغداد، العراق.
6. صلاح صالح، (1997)، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، ط1، دار شرقيات، القاهرة.
7. عبد الحميد المحادين(2001)، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، ط1، دار الفارس، الأردن.
8. غاستون باشلار(2006)، جماليات المكان، ط6، ترجمة غالب محلسا، المدرسة الجامعية، بيروت.

9. محمد أبو طير(2017م-1438هـ)، سيدي عمر- ذكريات الشيخ محمد أبو طير في المقاومة وثلاثة وثلاثين عاماً من الاعتقال-، تحرير بلال محمد شلش، ط1، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، بيروت.
10. مهدي عبيدي(2011)، جماليات المكان في ثلاثية حنا مينا، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق.
11. ناهض زقوت، (2017/4/26)، دلالات السجن الإسرائيلي في الرواية الفلسطينية، موقع المجموعة 194.
12. أسامة الأشقر(2017/8/10)، "سيدي عمر" مذكرات الشيخ محمد أبو طير، الجزيرة نت.